

الدرس الثاني والثلاثون :

ثلاث شهادات

روى الإمام أحمد في مسنده ، عن زيد بن أرقم قال : كان نبيُّ الله ﷺ يقول : في دُبرِ صلاته : « اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيدٌ أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيدٌ أن محمداً عبدك ورسولك ، ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيدٌ أن العباد كلهم إخوة ، اللهم ربنا ورب كل شيء ، اجعلني مُخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة ، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب ، الله الأكبر الأكبر ، الله نور السماوات والأرض ، الله الأكبر الأكبر ، حسبي الله ونعم الوكيل ، الله الأكبر الأكبر »^(١).

بهذا الدعاء القويّ كان ينادي رسول الله ﷺ ، ربه بعد كل صلاة ، يناجيه بهذه الأمور الثلاثة ، يشهد الله تعالى عليها . . .

التوحيد جوهر الأديان الربانية :

الأول : الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، « أنا شهيدٌ أنك الله وحدك لا شريك لك » ، التوحيد هو جوهر الإسلام وروحه ، بل هو جوهر الأديان كلها ، كل الأديان ، كل الكتب التي نُزِلَتْ ، كل الأنبياء التي أُرسلت إنما جاءت لتُخرج الناس من الوثنية إلى التوحيد ، جاء الجميع ينادون هذا النداء : ﴿ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: ٥٩).

(١) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، كلاهما في الزكاة ، والدارقطني في السنن كتاب زكاة الفطر (١٣٨/٢)، وقال عن رواته : ليس فيهم مجروح ، والحاكم في الزكاة (٤٠٩/١) ، وصحّحه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٢٠).

ضلال الإنسانية عن التوحيد :

إنَّ الإنسانية قد ضلَّت الطريق ، فعبدت مع الله آلهةً أخرى ، منهم مَنْ عبد الشمس والقمر ، ومنهم مَنْ عبد الجنَّ والبشر ، ومنهم مَنْ عبد الوثن والحجر ، ومنهم مَنْ عبد النبت والشجر ، ومنهم مَنْ عبد العنز والبقر ، ومنهم مَنْ عبد أشياء كثيرة ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى لم يدعهم في هذا التَّيه ، لم يدعهم في هذا الظلام الدامس ، بل أرسل إليهم رسلاً ، ليخرجهم إلى نور التوحيد ، من ظلام الشرك والوثنية ، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده .

هكذا كان الأنبياء جميعاً ، وهكذا كان آخرهم محمد ﷺ ، جاء بالتوحيد الخالص ، جاء يُحرِّر الناس من كل شائبة للوثنية ، جاء يدعو الناس إلى (لا إله إلا الله) ، ليس هناك آلهة مع الله ، ولا دون الله ، لا بشر ولا حجر ، ولا شيء في الأرض ولا شيء في السماء ، كان يختم رسائله إلى قيصر ، وإلى النجاشي ، وإلى غيره من أهل الكتاب بهذه الآية : ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤) ، ليس هناك بشر ربُّ لبشر ، إنما الكل عبيد لرب واحد ، عبيد لرب السماوات والأرض ، وخالق الكون ، ومُدبِّر الأمر كله .

هذا المبدأ الأول الذي يُنادي به رسول الله ﷺ ربه (التوحيد) : «أنا شهيد أنك الله وحدك ، لا شريك لك» .

محمد عبد الله ورسوله :

والمبدأ الثاني : أنا شهيد أنَّ محمداً عبدك ورسولك ، لقد ضلَّ الناس في معرفة حقائق الأنبياء ، فمنهم مَنْ أضفى عليهم صفة من صفات الألوهية ، ومنهم مَنْ اعتقد الأنبياء آلهة ، ومنهم مَنْ اعتقد أنهم أبناء الآلهة ، ومنهم مَنْ اعتقد أنهم شركاء الله عز وجل ، ولكن النبي ﷺ ، جاء ليُعلن في كتابه أن الأنبياء بشر مثلنا ، ﴿ قُلْ

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴿١١٠﴾ (الكهف: ١١٠) . ﴿قَالَتْ لَهُمْ
رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

(إبراهيم: ١١) .

لا يمتاز الرسول إلا بالوحي إليه ، ومضمون هذا الوحي هو (التوحيد) ، فليس
الرسول إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا نصف إله ، ولا ثلث إله ، ولا شيئاً حلَّ فيه روح
الإله ، إنما هو عبد من عبيد الله ، ومن هنا كان يقول في دبر كل صلاة هذه الشهادة :
«أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ» . وكان يُعلِّمنا أن نقول في التشهد : «أشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله»^(١) ، ويقول مُحَدِّثاً :
« لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا :
عبد الله ورسوله»^(٢) .

هذا ما كان يحرص عليه النبي ﷺ ، ولهذا كان يُحارب كل غلوٍّ في شخصه ،
جاء بعض الناس يقولون : يا محمد يا خيرنا وابن خيرنا يا سيدنا وابن سيدنا ،
فقال : «قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان ، محمد عبد الله ورسوله»^(٣) .

وجاء مَنْ دخل عليه فارتعد ، فقال له : «هَوْنٌ عليك ، فلستُ بملك ، إنما أنا
ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة»^(٤) .

هكذا كان يحرص ﷺ على أن يُظهر عبوديته لله ، وأنه مجرد رسول مُبلِّغ عن
الله عز وجل . . . «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك
ورسولك» .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأذان (٨٣١) ، ومسلم في الصلاة (٤٠٢) ، كما رواه أحمد
(٣٦٢٢) ، وأبو داود (٩٦٨) ، والترمذي (٢٨٩) ، كلاهما في الصلاة ، والنسائي في الافتتاح
(١١٧٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٩٩) ، عن ابن مسعود .

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٤٥) ، وأحمد (١٥٤) ، عن عمر .

(٣) رواه أحمد (١٣٥٩٦) ، وقال محققوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في الشعب
باب حفظ اللسان (٤٨٧١) ، عن أنس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩٧) .

(٤) رواه ابن ماجه في الأطعمة (٣٣١٢) ، والحاكم في التفسير (٤٦٦/٢) ، وصححه على شرطهما ،
ووافقه الذهبي ، عن أبي مسعود ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٧٧) .

البشر كلهم إخوة :

ثم يأتي الجزء الثالث من هذا الدعاء الجليل : « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة » . أخوة لأن أباهم واحد ، وأمهم واحدة ، وقبل ذلك : لأن ربهم واحد . . . ولهذا قال : « أن العباد كلهم عباد الله » ، فكلهم أخوة في ذات الله .

إن هذا الحديث الجليل ، ليدلنا أوضح الأدلة ، على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام .

إن هذا الدعاء . . . نرى فيه دلائل على قيمة الإخاء في هذه الرسالة :

دعائم الأخوة الإنسانية في الإسلام :

هو أولاً : يعلن الأخوة بين عباد الله . . . كل عباد الله ، لا بين العرب وحدهم ، ولا بين المسلمين وحدهم ، مُشيراً إلى الجامع المُشترك بينهم ، المُوحد بين أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم ، وهو العبودية لله تعالى ، « أن العباد كلهم أخوة » .

وهو ثانياً : يُقرّر ﷺ ذلك في صيغة دعاء يُناجي به ربه ، ويشهد بنفسه أمام الله سبحانه على أحقية هذا المبدأ وصدقه . . . أي إن تقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلام أو دعوى للاستهلاك المحلي ، أو للتضليل العالمي ، وإنما هي حقيقة دينية ، لا ريب فيها ولا جدال فيها .

وهو ثالثاً : أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام ، والذي لا يدخل أحد في هذا الدين إلا آمن بهما ، وشهد بهما ، وهما توحيد الله ، ورسالة عبده محمد ، وهذا الاقتران دليل على أهمية هذا المبدأ لدى رسول الإسلام ، كما أن لهذا الاقتران أهمية أخرى في تأكيد هذا الإخاء ، فإن توحيد الله تعالى ، معناه إسقاط كافة المتألهين في الأرض ، المتعالين على غيرهم من عباد الله ، وهذا أول ما يعمق أساس الأخوة بين الخلق .

ثم رابعاً : لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر ، مرة كل عام ، أو حتى في كل شهر ، أو كل أسبوع ، بل يدلُّ هذا الحديث أنه كان يُكرَّر ذلك في كل يوم ، وعقب كل صلاة ، أي خمس مرات في اليوم والليلة ، وهذا دليلٌ على مزيد العناية والاهتمام .

ثم خامساً : جعله ذلك من الأذكار والأدعية التي يُتَعَبَّدُ بها ، ويُتَقَرَّبُ إلى الله تعالى بتكرارها ، وربطه بالصلاة وختمها ، وهذا يَضْفِي عليه قدسيَّةً ومنزلةً في قلوب المؤمنين ، لا تعدلها منزلة مبدأ يُقرَّر بعيداً عن الله وعن هدي الله .

المسجد يثبَّت معاني الأخوة :

هذا هو الإخاء في الإسلام ، إخاء دعا إليه وأكَّده رسول الله ﷺ ، وثبَّته في مسجده .

المسجد الذي كان يضمُّ أجناساً من الناس ، منهم الرومي كصهيب ، والفارسي كسلمان ، والحبشي كبلال . ضمَّ العرب عدنانيين وقحطانيين ، ضمَّ مَنْ كانت بينهم الحروب والثار كالأوس والخزرج ، ضمَّهم المسجد في رحابه الفيحاء ، ضمَّهم أخوة الإسلام ، فشعروا بروح هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

ورُوح هذا الحديث وإن كان ضعيفاً : « أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ » ، وروح الحديث الآخر المتفق عليه : « وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »^(١).

هذا هو إخاء الإسلام ، الذي هو إخاء بشري عام ، يُؤكِّد الأخوة في العقيدة « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »^(٢).

فاللهم ارزقنا حسن الأخوة فيك ، إنك سميع قريب .

* * *

(١) متفق عليه : عن أنس ، وقد سبق تخريجه ص ٢٢٠ .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠) ، وأحمد في المسند (٥٦٤٦) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) ، والترمذي في الحدود (١٤٢٦) ، عن ابن عمر .